جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

جمالية البنية المكانية في الرحلات الحجازية مكة والمدينة في رحلة العبدري أنموذجا

إعداد

د/ خلود بنت جرمان خالد الدغيلبي

أستاذ الأدب والنقد المساعد بقسم اللغة العربية في كلية العلوم والدراسات الإنسانية بالأفلاج في جامعة سطام بن عبدالعزيز

(العدد السادس والثلاثون)

(الإصدار الثاني .. مايو)

(١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م)

علمية- محكمة- ربع سنوية

الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

جمالية البنية المكانية في الرحلات الحجازية مكة والمدينة في رحلة العبدري أنموذجا

خلود بنت جرمان خالد الدغيلبي

قسم اللغة العربية، كلية العلوم والدراسات الإنسانية بالأفلاج، جامعة سطام بن عبدالعزيز، المملكة العربية السعودية.

البريد الالكتروني:kholoudal-dughaili@gmail.com

الملخص:

يتناول هذا البحث دراسة بنية المكان في الخطاب السردي لرحلة العبدري، ومدى تأثير المكان على لغة الرحالة عند سرد رحلته، إذ يعتبر المكان من أهم عناصر الكتابة الرحلية والسرد عامةً، لأن الرحلة إنما هي انتقال في المكان، وقد شكلت مكة المكرمة والمدينة المنورة مقصداً للكثير من الرحالة ممن قصدوا الحجاز لأداء مناسك الحج وتحصيل العلم، فعلينا إيضاح وإبراز دور المكان في النص الرحلي، متخذين رحلة العبدري نموذجاً في الوصف والتحليل كمنهج لهذه الدراسة، وهو ما سيبرز لنا أثر المكان – خاصةً مكة والمدينة – في الخطاب السردي للرحلة، وليس كبقية الدراسات التي تناولت الرحلة من جانب وصفي فقط، دون التفكر والتدبر في أثر المكان على البنية السردية للرحلة، حيث أن هناك جوانب لبنية الرحلة السردية تستحق الدراسة بشكلٍ مستقل، كالمكان والزمان والشخصيات، ومن الفرضيات التي انطلقنا منها في كتابة هذه المقالة حول رحلة مغربية من الرحلات الحجازية ما يلي: الرحلات الحجازية رحلات حجية كان الهدف منها أداء فريضة الحج وتحصيل العلم من علماء الحجاز، وخصوصا من علماء مكة والمدينة ثم الوافدين عليهما، حملت هذه الرحلات تاريخاً يمجد بلاد الحجاز عموما، والمملكة العربية السعودية خصوصا، وتعد جزءا من تاريخنا المجيد الذي يشهد بأن بلادنا شكلت منارا علميا على مدى التاريخ، وحفلت بذكر مناقب الأماكن المقدسة، وعلى رأسها مكة والمدينة، رحلة العبدري نموذج للرحلات الحجازية اقتدى بها كثير من الرحالة بعد العبدري وساروا على نهجه.

الكلمات المفتاحية: المكان، مكة، المدينة، الرحلة، الحج، العبدري.

Aesthetic spatial structure in the Hijazi trips to Mecca and Medina in the journey of Al-Abdari as a model

Kholoud Bint German Khaled Al Daghilabi
Department of Arabic Language, College of Science and Humanities in Al-Aflaj, Sattam bin Abdulaziz University, Kingdom of Saudi Arabia.
Email: kholoudal-dughaili@gmail.com

Abstract:
This paper investigates the spatial structure in the narrative discourse of Al-Abdari's Journey, and to what extent the place affects the traveler's narrative language. Place is considered as one of the main components of the travel writing narrative and narration in general, due to the fact that travelling is moving from one place to another. The holy cities of Mecca and Medina was a chief destination to several travelers who went to Hijaz in the purpose of performing Hajj (pilgrimage) and for educational attainment. Taking Al-Abdari's Journey as a model for description and analysis, the aim of this paper is to focus on the role that place plays in travel writing. Unlike other papers that have studied the journey from a descriptive point of view, this paper highlights the impact of place-particularly Mecca and Medina- in the narrative discourse of the journey and its effect on time and characters, and from the hypotheses that we started from in writing this article about a Moroccan journey from Hijazi trips include the following: Hijazi trips are pilgrimage trips whose aim was to perform the Hajj and acquire knowledge from the scholars of Hijaz, especially from the scholars of Makkah and Madinah and then those who arrived there. These trips carried a history that glorifies the country of Hijaz in general, and the Kingdom of Saudi Arabia in particular. It testifies that our country has formed a scientific beacon throughout history, and is full of mentioning the virtues of the holy places, on top of which are Mecca and Medina.

Keywords: Place, Mecca, Medina, Journey, Pilgrimage, Al-Abdari.

مقدمة:

الرحلة ليست مجرد تنقل بين الأمكنة وقطع الطرق والأمصار لمجموعة من الناس فقط، وإنما هي فن من فنون النثر متجاوزاً المفهوم السطحي للرحلة، فالرحلة عبارة عن : "كتابة يحكي فيها الرحالة أحداث سفره وما شاهده وعاشه من أحداث"[١]. وهذا المعنى الثاني هو الذي يجعل الرحلة فناً أدبياً ينبع من الكتابة، فما يسجله الرحالة يقتضي قواعد كثيرة أهمها "أن يكون الرحالة ذا مستوى ثقافي يؤهله لنقل أحداث سفره إلى الكتابة"[٢]. وغيرها من أسلوب فني وتنظيم معين للأحداث. ومن أهم الرحلات التي أغنت الإنتاج الرحلي عند العرب رحلات الحج أو الرحلات الحجية كما يسميها البعض؛ وهي الرحلات التي كان يقوم بها مجموعة من الرحالة من مختلف مناطق العالم إلى بيت الله، وقد عُرفت هذه الرحلات كذلك باسم الرحلات الحجازية لأن هدفها زيارة قبر النبي الكريم، صلى الله عليه وسلم، بهذه المنطقة، وزيارة باقي الأماكن المقدسة .

وقد خصص العبدري الجزء الأكبر من رحلته لوصف مكة والمدينة، ولا يقف عند ذلك إلا من تناول هذه الرحلة بالتحليل والتأمل. أما على مستوى الكم، فقد كان أوسع فصل من فصول هذه الرحلة هو ذاك الذي خصصه لذكر مكة .

الرحلات الحجازية أو رحلات الحج، هي أكثر ما عرف من الرحلات من مختلف بقاع العالم، وخصوصاً من البلدان العربية، نحو الجزيرة العربية. وقد احتفلت هذه الرحلات بمدينتين مقدستين هما مكة والمدينة، ويحصي الباحثون مئات الرحلات التي عنيت بهاتين المدينتين المقدستين وجعلتهما موضوعاً لكتابتها الرحلية .

١- محمد حاتمي، في الخطاب الرحلي"، مجلة فكر ونقد، النسخة الإلكترونية على الرابط : .. www.aljabriabed.net/n87_05hatimi.htm

٢- نفسه .

يعد الرحالة المغاربة من أهم من كتبوا رحلات كان الهدف الأسمى منها أداء فريضة الحج، فقد أولعوا بالرحلات نحو الشرق لطلب العلم والجلوس بين أيدي العلماء ونهل العلم منهم، وكذلك لأداء فريضة الحج المفروضة على كل مسلم قادر بالغ. وقد برز في هذا المجال كثير من علماء وقضاة أهل المغرب لمعرفتهم بالكتابة وتمكنهم من أساليب اللغة في السرد والخطاب. لذلك ظهرت لدينا في الأدب العربي مجموعة من الرحلات المدونة في عصور مختلفة، والتي أثرت الأدب حتى صارت فناً مستقلاً، كان أهل المغرب فرسانه استطاعوا نقل الحياة الاجتماعية والاقتصادية، والثقافية لكثير من الأمصار العربية التي مروا بها وأعطوها حقها من الوصف، حتى صارت رحلاتهم مرجعاً تاريخياً لحقبٍ متفاوتة من الزمان .

ولئن كانت الرحلة بمفهومها الأدبي لا يكتبها إلا رحالة ذو حظ وافر من الثقافة، فإن العلماء أشد شوقاً إلى أداء فريضة الحج من غيرهم، لعلمهم بوجوبها على كل مسلم قادر وبالغ، وشوقهم لرؤية بلاد الرسول صلى الله عليه والسلام وصحابته، والسلام عليه، وقد توافد الكثير من العلماء المغاربة على الحجاز لأداء هذه الفريضة، وكثير منهم دون مشاهداته في رحلته حيث " لا تكاد تخلو أي ترجمة إلى صاحبها بأنه حج أو رحل إلى الديار المقدسة، فعبد الحي الكتاني ذكر في تقريظه لصاحب كتاب "دليل الحج والسياحة " قائمة طويلة بمن رحل إلى الحج، واقتصر فقط على من اشتهرت رحلاتهم بين الناس فعد منها أربعين رحلة حجازية، ونفس الشيء قام به باحثون آخرون، مما ينم عن كثرة المغاربة الذاهبين إلى الحجاز "[١].

١- الحسن الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، منشورات عكاظ، ١٩٩٠، ص: ٤٨.

يبدو واضحاً أن الهدف الديني المتمثل في أداء مناسك الحج هو السبب الأول الذي حرك الرحلات المغربية نحو الحجاز، ولكنْ هناك أسباب أخرى كطلب العلم من علماء المشرق، وزيارة الأصدقاء والأهل وتمتين العلاقة الاجتماعية بين أهل المشرق والمغرب دينياً واجتماعياً وتجارياً وتناقل الخبرات والمنافع فيما بينهم ولا يمكن الإحاطة بكل العوامل التي ساعدت على كثافة الرحلات المغربية إلى بلاد الحجاز، إذ هناك عوامل شخصية أخرى ترتبط بهؤلاء الرحالة وأخرى عامة بين الناس .

لعل رحلة العبدري من أبرز هذه الرحلات، التي وإن كانت قد شكلت مصدراً من المصادر الأساسية التي اعتمدها الكثير من الرحالة، بعد العبدري، في رحلاتهم وتدويناتهم، فإنها لم تلق الاهتمام الذي تستحقه من طرف الدارسين.

شكلت الرحلات موضوعا للكثير من الدراسات الحديثة، ومن هذه الدراسات ما تناول الرحلة بصفة عامة دون العناية بجوانبها الأدبية، وإنما تمت دراستها بصفتها مصدرا من مصادر المعرفة العلمية، والمعرفة الجغرافية خاصة، ومن هذه الدراسات ما كتبه صلاح الدين الشامي[١]، حينما نظر إلى الرحلات العربية كمصدر من مصادر الدراسات الجغرافية .

لم يهتم الدارسون بدراسة المكان في الرحلة دراسة وافية[٢]، وقليلة هي الدراسات التي اهتمت بدراسة المكان في الرحلات الحجازية، وأقل منها تلك التي درست مكة والمدينة في هذه الرحلات، ولعل أهم دراسة وقفت عند الأمكنة

١- الشامي صلاح الدين، الرحلة عين الجغرافيا المبصرة، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط. ٢، ١٩٩٩.

٢- كندة طباع، "المكان في أدب الرحلة، دراسة في المعني وأساليب التصوير النصي، ضمن مجلة لونارد، عن مؤسسة لونارد للفن والعمارة والتراث، لندن، العدد: ٧، السنة: ٢، يناير ٢٠١٢، ص: ٣٠.

المقدسة في الرحلات الحجازية نذكر الدراسة التي قام بها الباحث والعلامة المغربي عبدالهادي بوطالب بعنوان[١]: رحلة الرحلات: مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، والصادرة عن منشورات مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، سنة ٢٠٠٥ .

إلا أن جل الدراسات التي درست الرحلة إنما ربطتها بما هو أدبي، وكان البحث في الخصائص الأدبية لفن الرحلة أهم العناصر التي اهتم بها هؤلاء الدارسون، ومن هذه العناصر عنصر السرد أو القص. من بين هذه الدراسات نذكر:

- دراسة شوقي ضيف[٢] ، بعنوان: الرحلات، الصادرة عن دار المعارف بالقاهرة، في طبعتها الرابعة سنة ١٩٨٧، وهي دراسة نظرت إلى الرحلات العربية من وجهة نظر سردية، حيث عد شوقي ضيف الرحلة فنا من الفنون القصصية عند العرب .
- دراسة السيد ناصر الموافي، بعنوان: الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري[٣]، وهي دراسة وقف صاحبها عند التنوع الذي تتسم به الرحلات العربية رغم أن موضوعها يكاد يكون واحداً، وخصوصاً عندما يتعلق الأمر برحلات الحج .

١- عبد الهادي بوطالب، رحلة الرحلات: مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، منشورات مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، سنة ٢٠٠٥.

٢- شوقي ضيف، الرحلات، دار المعارف، ط. ٤، ١٩٨٧.

٣- ناصر الموافي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، مكتبة الوفاء، القاهرة، ط. ١، ١٩٩٥.

- ومن أحدث الدراسات في مجال دراسة الرحلة كفن أدبي، بمناهج حديثة، الدراسة الذي قدمها الباحث المغربي شعيب حليفي، بعنوان[1]: الرحلة في الأدب العربي، عن منشورات رواية للنشر والتوزيع، القاهرة، سنة ٢٠٠٦ .

هناك بعض الدراسات التي كان موضوعها محصوراً في دراسة الرحلات المغربية إلى بلاد الشام، وهي التي عرفت بالرحلات الحجية أو الحجازية. ومن الدراسات التي قاربت موضوع هذه الرحلات :

- دراسة الحسن الغشتول، بعنوان: خطاب الرحلة المغربية إلى الحجاز[2]، الصادرة في إطار كتاب المجلة العربية في عددها ٢٥٥، الرياض،١٤٣٩هـ.

من الفرضيات التي انطلقنا منها في كتابة هذه المقالة حول رحلة مغربية من الرحلات الحجازية ما يلي :

- الرحلات الحجازية رحلات حجية كان الهدف منها أداء فريضة الحج وتحصيل العلم من علماء الحجاز، وخصوصا من علماء مكة والمدينة ثم الوافدين عليهما .
- حملت هذه الرحلات تاريخاً يمجد بلاد الحجاز عموما، والمملكة العربية السعودية خصوصا، وتعد جزءا من تاريخنا المجيد الذي يشهد بأن بلادنا شكلت منارا علميا على مدى التاريخ، وحفلت بذكر مناقب الأماكن المقدسة، وعلى رأسها مكة والمدينة .
- رحلة العبدري نموذج للرحلات الحجازية اقتدى بها كثير من الرحالة بعد العبدري وساروا على نهجه .

١- شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، منشورات رواية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٦.

٢- الحسن الغشتول، خطاب الرحلة المغربية إلى الحجاز، كتاب المجلة العربية، العدد: ٢٥٥، الرياض، ١٤٣٩هـ.

إذا كانت الرحلات الحجازية تتمتع بهذا الحضور في التاريخ الأدبي والثقافي للبلاد العربية، وتقدم صورة مقربة للحجاز عامة، ولمكة والمدينة على وجه الخصوص، فما هي خصوصيات هذه الرحلات الفنية والأدبية؟ وما هي الصورة التي ترسمها لمكة والمدينة كمكانين مقدسين ؟

سنقارب موضوع مكة والمدينة في رحلة العبدري، في هذه الدراسة التي جاءت على مبحثين، المبحث الأول يتحدث عن رحلة العبدري من جانب نظري، كالتعريف بالرحلة وصاحبها وأبرز ما ذكره في رحلته، ثم منهجه الذي اتبعه عند كتابة رحلته. أما المبحث الثاني، فهو يتناول البنية المكانية في الرحلات بصفة عامة، ثم يتناول البنية المكانية في رحلة العبدري بصفة خاصة، ونعطي مكة والمدينة النصيب الأكبر من الاهتمام لحصولهما على النصيب الأكبر من بين الأمكنة التي مرّ الرحالة بها فزاد في وصفهما والحديث عنهما .

المبحث الأول – الرحلة العبدرية:

أولاً – التعريف بالرحلة :

الرحلة جنس أدبي، لا يختلف الدارسون في إلحاقها بالأدب، ولكنها تثير أسئلة كثيرة حول طبيعتها الأدبية؛ لأنها تنتمي إلى أنواع كثيرة من الكتابات والتخصصات، فهي تنقل التاريخ والمجتمع والجغرافيا، ونجد فيها كل الأنواع الأدبية الأخرى من الشعر إلى القصة. وأسلوبها في الكتابة هو سرد مجموعة الأحداث ووصف الأماكن والشخصيات، لذلك يتحدث الدارسون عن وجود بنية سردية تنظم هذا العمل، وتختلف في الرحلة عن غيرها، لأن "الرحلة من منظور السرديات صيغة لغوية لها سماتها الأسلوبية التي تميزها عن غيرها من الأشكال التعبيرية، وأن المضامين والقيم ما هي إلا نتيجة لهذه الصيغة وهذا الاختيار الأسلوبي، فهي حكاية يسردها راو محدد بصيغة وأسلوب محددين، وزمن معين وأشخاص وأحداث وفضاء كلي وأمكنة متنوعة"[١].

إلا أن الكتابة الرحلية تتميز بمجموعة من الخصائص التي تميزها عن غيرها من الكتابات والأجناس النثرية الأخرى يوردها لنا الباحث محمد حاتمي كما يلي :

- هيمنة بنية السفر التي تؤطر الأحداث وتنظمها .
- الذاتية: تحضر ذات الرحالة في رحلته حضورا بارزا، وليس هذا بمستغرب ما دامت الرحلة حكيا لسفر قامت به هذه الذات، وهكذا تحتل الذات المركز في الحل والترحال، وتصطبغ الرحلة بألوانها الناصعة والداكنة .
- الحكي بضمير المتكلم مفردا أو جمعا: وهذا تجل من تجليات الذات في أسلوب الكتابة .

١- عبد العليم محمد إسماعيل، تقنيات السرد أساس أدبية الرحلة، جائزة الطيب صالح العالمية للإبداع الكتابي، الدورة الثامنة، عالم خضرة، ١٤٣٩ / هـ ٢٠١٨، ص: ٨.

– الواقعية: الرحالة–الراوي رجل واقعي عاش في فترة زمنية معروفة، والأشخاص الذين يتحدثون عنهم أيضا واقعيون عاشوا في زمن معروف .

– دورة الخطاب بالرجوع إلى نقطة الانطلاق: فالخطاب يبدأ مع انطلاق الرحالة من موطنه، ويسير معه إلى المكان المقصود، ويعود معه إلى نقطة الانطلاق"[١].

إن كل الباحثين الذين تناولوا الرحلات بالدرس والتحليل يذهبون إلى أن الرحلة فن سردي، تتوفر فيها كل المقومات السردية، مثل القصة الأدبية والرواية وغيرها من فنون السرد، تقول الباحثة سديدة سهام. "ولا تعدم الصواب إن قلنا أن الرحلة تنتمي إلى العالم السردي، لما فيه من تناوب سرد أفعال ووصف أحوال، وشخص رحال ينجز تلك الأفعال أو يحكيها، وراو يسند إليه الكاتب الدور التقني في استحضار الأقوال والأفعال التي تنجز من قبل فاعلين في أزمنة وأمكنة متعددة وفي شكل منفتح يتسع للتجارب الواقعية والمتخيلة الماضية والحاضرة والمستقبلية"[٢]. ولهذا لا ينكر الباحثون أدبية الرحلة رغم أن من كتبوا الرحلة ينتمون إلى عالم التاريخ والجغرافيا أو غير ذلك، ولكنهم عبروا عن ذلك بطريقة فنية، ولذلك يعتبرون أن" أدب الرحلة مجموعة من الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، في حين، استشار الجانب القصصي اهتماما آخر– بمصادقة وإجماع المختصين – أكد على أحقية الرحلات بحمل لقب أدب، وبانضمام مستحق لعائلته نثره وشعره"[٣].

١– محمد حاتمي، في الخطاب الرحلي .

٢– سديرة سهام، "أدب الرحلة، الماهية، البنية والشكل"، مجلة البدر، المجلد ١٠، العدد ١٠،٢٠١٨م، ص: ١٥.

٣– سعيدة حمداوي، "تجليات السرد في أدب الرحلة قراءة في كتاب الرحلات الحجازية في الأدب الجزائري لسميرة أنساعد، مجلة المدونة، العدد الرابع، سبتمبر ٢٠١٥م، ص: ٩٨.

ثانياً – التعريف بالعبدري :

العبدري صاحب هذه الرحلة التي نتقرب منها هو "أبو عبد الله بن محمد بن علي بن أحمد بن سعود العبدري، وينتهي نسبه إلى عبد الدار بن قصي بن كلاب وإليه نسبته"[١] ويقول الباحثون إن العبدري لم ينل حظه من الدراسة والتعريف، إذ لا تشير إليه كتب التراجم والفهارس والطبقات وغيرها، "إن العبدري قد غمط حقه وأهمل ذكره في المصادر القديمة، فلم يشر إليه أحد من القدماء ولم يخصه مؤلف بترجمة وافية معينة، رغم كثرة النقل عن رحلته والاستفادة مما ورد فيها. والمصدر الذي خصه بترجمة مختصرة هو جذوة الاقتباس لابن القاضي (ت. ١٠٢٥هـ)، إلا أن هذه الترجمة مختصرة إلى درجة الإخلال"[٢]. وجل الذين تعرضوا له بالدراسة يجمعون على أنه رجل علم وثقافة واسعة، وقد "عرف عن أفراد أسرته اشتغالهم بالعلم والأدب والتدريس"[٣]. ورحلته هاته خير دليل على سعة علمه وثقافته، فقد كان من بين الأمور التي شغلته خلال هذه الرحلة، ذكر كل ما له علاقة بالعلم والعلماء على طول الرحلة كلها، ذهابا وإيابا.

والعبدري من بلدة "حاحة"، وهي بلدة قريبة من مدينة مراكش، نشأ بها في طفولته، وبها تلقى تعليمه الأولي على الطريقة التقليدية التي كانت معروفة في المغرب في حفظ القرآن والتدرج بعد ذلك في حفظ بعض المتون من التفاسير والمتون النحوية. ثم تعلم بعد ذلك العمليات الحسابية .

انتقل إلى مراكش، وكانت آنذاك مركزا علميا معروفا، فتتلمذ على يد بعض الشيوخ، منهم: محمد بن علي بن يحيى الشريف، ولا تعرف للعبدري مؤلفات أخرى

١- أبو عبد الله العبدري، رحلة العبدري، تحقيق علي إبراهيم كردي، تقديم شاكر الفحام، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط.٢، ٢٠٠٥م، ص: ٧.

٢- الحسن الشاهدي، ص : ١٧٣.

٣- الحسن الشاهدي ، ص : ١٧٩.

غير رحلته هاته، وهي مصدر الحصول على كل ما تعلق بحياته وعلمه على ما ذكر المحقق[١].

لقد أفاد العبدري من كل العلوم، ومن أصناف الفنون الأدبية، فقد "ظهرت جلية في رحلته التي بدا فيها المؤلف حافظا للقرآن، عارفا بأيام العرب وغزواتهم، وفصحاء خطبائهم، وله معرفة بالأسماء والألقاب والكنى وأسماء الأماكن، وبمصطلحات علوم الأدب والبلاغة والعروض"[٢]. وهذه المعلومات كلها تشهد على نبوغ هذا الرحالة المغربي الذي يمكن عده رائدا من رواد الرحلات الحجازية رغم الإهمال الذي تعرض له.

ثالثاً – رحلة العبدري :

رغم الأهمية الكبيرة لرحلة العبدري في تاريخ الرحلات الحجازية، وأدب الرحلة بصفة عامة، إلا أنها بقيت مخطوطة لفترة طويلة من الزمن، فقد "اهتدى بها عدد من الرحالة ونقلوا عنها، واسترشدوا بها، فقد نقل عنها ناسخ رحلة ابن بطوطة فقرات كثيرة"[٣]. كما يذهب المحقق في مقدمته، واعتمد عليها أبو سالم العياشي في رحلته المعروفة بماء الموائد كذلك، ولم ينتبه الدارسون العرب إلى قيمة رحلة العبدري إلا بعدما تناولها المستشرقون وعرفوا بها. فقد "كان المستشرقون أول من نوه في العصر الحديث بقيمة رحلة العبدري: عني بها المستشرق الفرنسي فالنسان في مقال نشره بالجريدة الآسيوية (سنة ١٨٤٥م)"[٤]، ثم بدأ بعد ذلك الاهتمام بها، "فانصرف الكثيرون حينئذ إلى الاشتغال بها وإخراج نصوصها، وهكذا تم طبعها أولا بالجزائر بتحقيق الأستاذ ابن جدو"[٥]، ويؤكد

١– رحلة العبدري، ص: ٨.

٢– نفسه، ص: ٨ .

٣– نفسه، ص : ١٧ .

٤– رحلة العبدري ، ص: ١٧.

٥– الحسن الشاهدي، ص : ١٨٤.

الكثير من الدارسين على أن هذا التحقيق لم يكن كافيا ولم يتناول كامل الرحلة، وإنما اقتصر على جزء منها. أما التحقيق الثاني الذي حظيت به هذه الرحلة فقد كان للأستاذ الفاسي الذي "قام بتحقيق النص فأفرغ في ذلك وسعه، ووفق في أكثر ما ذهب إليه، ولكنه أقل إقلالا كبيرا في شرح الألفاظ والمعاني التي يحسن تفسيرها، وأضرب عن تخريج النصوص في مظانها، وهو أمر له شأنه في الموازنة بين النصوص المقتبسة والنصوص كما جاءت في أصولها، وأغفل تخريج الأشعار، ولم يعرف بالأعلام التاريخية والجغرافية التي تحتاج إلى فضل تعريف وبيان"[١].

إن النسخة التي نعتمدها في هذه الدراسة هي النسخة التي حققها السيد علي إبراهيم كردي، وقد تجاوز فيها النقص المشار إليه في التحقيقين السابقين (تحقيق الأستاذ ابن جدو وتحقيق الأستاذ الفاسي). وقد عمل وفق منهج يقول عنه بأنه: "التزمه في ضبط النصوص وتدقيقها، وتخريجها في مصادرها، وشرح الغريب من الكلم والمعاني، والتعريف بالأعلام والمواضع، والعناية بتخريج الأحاديث والأشعار والأمثال في مظانها. وختم التحقيق بأحد عشر فهرسا كانت وافية بمطالب القارئ والباحث"[٢].

أما تسمية هذه الرحلة، فإنها، هي الأخرى، أثارت نقاشا، فقد اختلف الباحثون في تسميتها الأصلية التي وسمها بها صاحبها. فنجدها عند البعض مسماة باسم صاحبها (رحلة العبدري) كما جرت العادة بذلك في تسمية جل الرحلات، ونجدها عند آخرين باسم (الرحلة المغربية)، ويذهب هذا المذهب الأستاذ الفاسي ناشر طبعة الرباط، الذي "يرى أن العبدري سمى رحلته "الرحلة المغربية:" وإنما قصد بها أنه قطع بلاد المغرب في طريقه إلى بلاد المشرق، ولم

١- رحلة العبدري، ص : ٥١ .

٢- نفسه، ص: ٥١ .

يركب البحر كما فعل غيره من الرحالين كابن جبير"[١]. أما محقق طبعة الجزائر الأستاذ ابن جدو، قبل ذلك، والذي يذهب الكل إلى أنها ناقصة، فإنه قد "أشار إلى احتمال أن يكون اسمها الجملة التي ذكرها العبدري في مقدمة الرحلة: "ما سما إليه الناظر المطرق في خبر الرحلة إلى بلاد المشرق"[٢]. إلا أن هذه التسمية لم تلق اعتمادا من طرف الدارسين بحسب المصادر التي اعتمدناها في هذه الدراسة لرحلة العبدري .

أما عن أسباب هذه الرحلة، فهي كغيرها من الرحلات الحجازية، أو رحلات الحج، لا تخرج عن سببين رئيسيين، الأول ديني، ويتمثل في السعي لأداء مناسك الحج، والثاني علمي هدفه تحصيل العلم وملاقاة العلماء والشيوخ. فقد كان العبدري "يتوخى القيام بفريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة والاتصال بالمتصوفة والصالحين، ولعل هذا الحافز هو الحافز الأساسي له على الرحلة (...) أم الشق الثاني فيعكس رغبته في لقاء العلماء والأعلام، والأخذ عنهم، والبحث عن السند العالي، وتبدو هذه الرغبة مستبدة به، مستولية عليه، فهو دائم السؤال عن الأحوال العلمية والثقافية في كل بلد حل به"[٣]، وقد بدت هذه الرغبة في استقصاء أحوال العلم والعلماء طاغية في كل ما دونه العبدري، إذ يمكن اعتبار ذلك منهجا سلكه الرحالة في تمييز رحلته لتكون، إلى جانب أنها رحلة حج، رحلة تؤرخ للعلم والعلماء في عهده على طول البلاد التي قطعها في رحلته .

١- نفسه، ص: ٨٦ .

٢- رحلة العبدري ، ص: ٨٦ .

٣- الحسن الشاهدي، ص : ١٨٥.

رابعاً – منهج العبدري في كتابة رحلته :

تتميز الكتابة الرحلية عند العبدري، عن غيرها، بمجموعة من الخصائص المنهجية والعلمية يمكن أن نستشفها من نصه الموالي الذي يتحدث فيه عن منهجه في كتابة هذه الرحلة، والذي يقول فيه: "وبعد، فإني قاصد، بعد استخارة الله سبحانه إلى تقييد ما أمكن تقييده، ورسم ما تيسر رسمه وتسويده، مما سما إليه الناظر المطرق في خبر الرحلة إلى بلاد المشرق، من ذكر أوصاف بعض البلدان، وأحوال من بها من القطان، حسبما أدركه الحس والعيان ، وقام عليه بالمشاهدة شاهد البرهان، من غير تورية ولا تلويح، ولا تقبيح حسن ولا تحسين قبيح، بلفظ قاصد لا يحجم معردا، ولا يجمح فيتعدى المدى، مسطرا لما رأيته بالعيان، ومقررا له بأوضح بيان، حتى يكون السامع لذلك كالمبصر، وتلحق السبابة الخنصر، فتشفى به نفس المتطلع المتشوف، ويقف منه على بغيته"[1].

من خلال هذا النص يوضح العبدري منهجه في كتابة رحلته، التي لا نستبعد أن عبارة "ما سما إليه الناظر المطرق في خبر الرحلة إلى بلاد المشرق" يمكن أن تكون عنوانا لها. أما هدفه من كتابة هذه الرحلة فقد أجمله في قوله: "ذكر أوصاف البلدان وأحوال من بها من القطان" أما نهجه في ذكر هذه الأوصاف فهو يريده منهجا موضوعيا يصف ما يشاهده، دونما تحيز، أو تقبيح، أو محاباة. إلا أن العبدري لم يتردد في الاستعانة بمصادر كثيرة من أجل تقريب القارئ مما يصفه، فهو يعود إلى مجموعة من المصادر المكتوبة، ويستعين ببعض الشهادات الحية لمن يلاقيهم، وكل ذلك في سبيل التحري الهادف إلى الموضوعية و "مما يدل على التأني والتروي في إصدار الأحكام هو الرجوع من حين لآخر إلى مصادر عديدة للتصحيح وللمقارنة، كما اعتمد على كتب السيرة والحديث وكتب التصوف والمديح النبوي، وكتب الجغرافية والرحلات والتاريخ

١- رحلة العبدري، ص : ٢٨ .

والدواوين ". وهذا المنهج في كتابة الرحلات إغناء ما تقدمه من معلومات ليس جديدا، ولكن العبدري أبدع فيه، وساعده على ذلك سعة علمه وثقافته .

أما أسلوب العبدري في نقل هذه المعلومة، فقد كتب رحلته بلغة عربية رصينة وسليمة لتمكنه من هذه اللغة ومن قواعدها، ولم يكن له أن يخالف منهج التأليف آنذاك، فزين أسلوبه بالسجع والجناس وغيرها من المحسنات اللفظية والمعنوية وقد رأى محقق الطبعة التي نعتمدها أن العبدري بالغ في ذلك حتى اعتبره متكلفا، يقول: "وقد طغى على أسلوب العبدري في رحلته الصنعة والتكلف فقد فشا فيها السجع والجناس وما إلى ذلك من المحسنات البديعية التي يكد المؤلف فيها ذهنه، ويعمل فكره، ويقسو على نفسه ليلائم بينها ويزوق ألفاظه وجمله بها[١]. وقد سارت كثير من الرحلات المغاربة بعد العبدري على النهج في كتابة الرحلات مثل العياشي في رحلته "ماء الموائد" وغيره .

استند العبدري في تبويبه لرحلته إلى عنصر المكان بالدرجة الأولى، وذلك بصفته محددا رئيسا وعنصرا أساسا من عناصر فن الرحلة، فجل الفصول والفقرات كانت تنظم وفق معيار المكان الذي يتحدث عنه الرحالة، حتى وإن اقتضى الحال تكسير بنية الزمان استباقا واسترجاعا للحديث عن هذا المكان والأحداث والشخصيات التي تتعلق به أو التي تخصه، وقد تجلى ذلك واضحا في حديثه عن مكة والمدينة، فجاءت الفصول تجمل عناوين الأمكنة التي يصفها والغرض من وصفها، ومن هذه العناوين والتحديدات: ذكر مكة، حدود مكة، ذكر المدينة المنورة، بالإضافة إلى الأماكن التي يفصل الحديث فيها داخل مكة والمدينة كالمساجد والمزارات وغيرها: الكعبة، المسجد الحرام، مساجد عائشة، بئر زمزم، مسجد النبي، الروضة الشريفة .

١- علي إبراهيم كردي، أدب الرِّحل في المغرب والأندلس، مطابع الهيئة السورية العامة للكتاب، ٢٠١٣م، ص: ٩٤.

المبحث الثاني – مكة والمدينة في رحلة العبدري :

أولاً – البنية المكانية في أدب الرحلة :

ظهر مصطلح "بنية" في مفهومه الحديث عند جان موكاروفسكي الذي عرف الأثر الفني بأنه "بنية"، أي مجموعة من العناصر المحققة فنيا، والموضوعة في تراتبية معقدة تجمع بينها سيادة عنصر معين على باقي العناصر". ويقول عبد الرحيم الكردي بأن "مفهوم البناء في الآداب يدور حول إخراج الأشياء والأحداث والأشخاص من دوامة الحياة وقانونها ثم رصفها في بنية أخرى وقانون آخر هو قانون الفن " والبنية "هي طريقة فنية معمارية، تحكم تماسك أجزاء بناء ما، قائم على إدخال قانون أو نظام داخلي يجمع تلك الأجزاء. (...) فالبنية محددة بعلاقات تربط بين مكونات النص السردي، بحيث لا يمكن فهم أي عنصر من عناصرها من غير النظر إلى قيمة ارتباط هذا العنصر بسواه "[١].

يرى الناقد هايدن وايت [٢] أن "القضية الأساسية في السرد تكمن في "كيف نترجم المعرفة إلى إخبار" أو كيف نحول المعلومات إلى حكي، كيف نحول التجربة الإنسانية إلى بنى من المعاني التي تتخذ شكل الخصائص الثقافية المرتبطة بالزمان والمكان والناس والأحداث؟" ولعل هذا التعريف ينقلنا إلى السرد في الرحلة على وجه الخصوص، لأن العمل الذي يقوم به الرحالة يتجلى أساسا في تحويل مجموعة من المعلومات التي حصل عليها عن طريق السفر والمعاينة والمخالطة إلى تجربة مكتوبة .

١ – عبدالرحيم الكردي، البنية السردية للقصة القصيرة، مكتبة الآداب، القاهرة،ط٣، ٢٠٠٥م، ص : ١٦ .

٢ – نفسه ، ص : ١٦ .

يقول حميد لحمداني معرفا مفهوم السرد: "يقوم الحكي على دعامتين أساسيتين: أولهما: أن يحتوي على قمة ما، تضم أحداثا معينة .

وثانيهما: أن يعين الطريقة التي تحكى بها تلك القصة. وتسمى هذه الطريقة سردا، ذلك أن قصة واحدة يمكن أن تحكى بطرق متعددة، ولهذا السبب فإن السرد هو الذي يعتمد عليه في تمييز ألفاظ الحكي بشكل أساسي"[١].

لا تنفصل دراسة البنية المكانية في الرحلة عن دراسة بنيتها السردية عموما، فالمكان لا يشكل إلا عنصرا من بين عناصر البنية السردية، ولكنه الأهم من بينها، حيث "يشكل المكان في النص الرحلي عنصرا بنائيا، ومبدأ فاعلا فيه متعاضدا مع الراوي، يجعلنا نعجز عن تخيل أية رحلة – مهما كان نوعها، واقعية، أم كرامية، أم فانتازية – دونه، لأن الارتحال فعل انتقال في فضاء المكان المتوافق مع طبيعة الرحلة، وهو ما جعله محورا رئيسا من محاور النشاط النقدي المهتم بالنص الرحلي"[٢].

من أهم العناصر الذي يقف عندها الدارسون في دراساتهم للبنية السردية، في أي عمل قصصي، نرى: الزمان، المكان، الشخصيات والأحداث. وهذه كلها هي العناصر التي بدونها لا يكون لدينا عمل سردي، إلا أن العنصر الأساس في الرحلة، بوصفها عملا سرديا، هو عنصر المكان، لأن الرحلة انتقال في المكان ووصف له، وهو الغاية الأولى من القيام بها (زيارة مكان أو أمكنة

١– حمبد الحميداني، "بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت،ط١، ١٩٩١م، ص:٥٤ .

٢– رؤى قداح، "تذويت" صورة المكان في النص الّرحلي: القاهرة المعّزية في رحلة العبدري أنموذجاً"، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد ٤٠ن العدد ٢، ٢٠١٨، ص: ٩٧.

محددة) ومن كتابتها. وتنطبق هذه القاعدة بدرجة عالية على الرحلات الحجية، لأن هدفها الأسمى زيارة الأماكن المقدسة .

إن كل رحالة، وإن كان يصف لنا أمكنة واقعية، فإن تقديمه لهذه الأمكنة يتم عبر رؤيته هو لها، وهنا تتدخل الذات لتطبع المكان بطابعها الذاتي. وقد ميز الكثيرون ممن درسوا المكان في الرحلة بين المكان الواقعي، أو الجغرافي الموضوعي، وبين المكان كما يقدمه المبدع في عمله السردي، رحلة كان أم غير ذلك. و"المكان الرحلي مختلف عن المكان الجغرافي الذي يتصف بالشمولية والموضوعية "الممكنة" ومحاولة الإحاطة بالجزئيات لغاية تعريفية وتوثيقية وتعليمية... فالمكان الرحلي.. مكان مُذَوَّت مُشَكَّل من عناصر منتقاة انتقاء واعيا من المكان الواقعي، يعبر عن ذات الرحالة وثقافتها وميولها وحالها النفسية وموقفها من المكان"[١].

ثانياً – البنية المكانية في رحلة العبدري :

يؤكد الكثير من الباحثين على أن دراسة المكان في السرد، أو الفضاء، لم تقدم نتائج متفق حولها، فقد بقيت عبارة عن اجتهادات فردية بحسب ما يقدمه لنا الباحث المغربي حميد لحمداني. ومن الدراسات التي يقدمها هذا الباحث التعامل مع الفضاء في الرواية كمعادل للمكان دون تمييز بينهما. يقول: "يفهم الفضاء في هذا التصور على أنه الحيز المكاني في الرواية أو الحكي عامة. ويطلق عليه عادة الفضاء الجغرافي. فالروائي مثلا – في نظر البعض – "يقدم دائما حدا أدنى من الإشارات "الجغرافية" التي تشكل فقط نقطة انطلاق من أجل تحريك خيال القارئ، أو من أجل تحقيق استكشافات منهجية للأماكن"[٢]. ويبدو

١– رؤى قداح، "تذويت" صورة المكان في النص الرحلي، ص: ٩٧ .

٢– حميد لحمداني، بنية النص السردي، ص: ٥٣ .

لنا أن هذا التعريف قد يكون مناسبا لنا في دراسة الرحلة أكثر من غيره، لأن المكان في الرحلة هو مكان جغرافي بالدرجة الأولى، والإشارات التي يقدمها الرحالة قد تتجاوز التلميح من أجل تحريك خيال القارئ إلى تقديم معطيات جغرافية وافية. وهذا ما نجده عند جل الرحالة، والعبدري كان مستفيضا في تحديد الأماكن التي يصفها، والتزم منهجا واضحا في كتابة رحلته، فقد صرح بذلك في تقديمه لهذه الرحلة، ومن مقوماته نقل المشاهدات بكل موضوعية .

وقد شكل المكان البؤرة الأساسية التي صنف من خلالها الرحالة فصول رحلته وعناوينها، وشغلت الأماكن المقدسة، وأهمها مكة والمدينة، الجانب المهم، والحيز الكبير فيما كتبه هذا الرحالة. إن ما يطبع رحلة العبدري ويميزها كثيرا هو تعلق صاحبها بالأماكن المقدسة، وأماكن العلم، فهو يختار الأماكن التي يصفها ويقدمها للقارئ بعناية، ومن شروطها أن تكون ذات قدسية، أو أن تكون أمكنة لتحصيل العلم ومجالس للعلماء. أما وصفه لهذه الأمكنة فإن الرحالة يقدم أوصافا وافية، فيقدم لنا الأمكنة وكأننا نراها، وقد التزم بذلك حينما قال: "حتى يكون السامع لذلك كالمبصر". يقول في وصفه لمكة :

"وهي – شرفها الله – بلدة كبيرة متصلة البنيان في بطن واد بين جبال محيطة بها، لا يراها القاصد إليها حتى يشرف عليها. والجبال المحيطة بها ليست شامخة، وبنيانها آخذ في الاستطالة مع الوادي، ولا سور لها، إلا أنها حيزت من أعلى الوادي وأسفله بحائطين من صخور لا ملاط لها، قطعا الوادي عرضا حتى وصلا بين الجبلين، وهما على فسحة من البلد"[١].

إذا كان الرحالة العبدري قد رسم لنفسه هدفا من كتابة رحلته، ويتمثل في نقل مشاهداته بكل موضوعية للقارئ، فإنه اشترط على نفسه ألا يتعارض ما

١- رحلة العبدري، ص: ٣٦٤.

يقدمه مع الهدف العام للرحلة، وهو أداء فريضة الحج وتحصيل العلم من الشيوخ، لذلك لم يصف إلا الأمكنة التي لها علاقة بذلك، فإن مر ببلد ليست به أمكنة تستوفي هذين الشرطين، فإنه يشير إلى ذلك، يقول عن مروره بإحدى القرى: "ثم مررنا على قرية خولان، ولم يعرج عليها من صَحْبِنا إنسان، ولم أر بها ما يَتَعَرَّض له ببيان، ولا يُعمَل فيه قلم ولا لسان"[1]. وهذا النص صريح ويفيد أن هذه القرية ليست بها أماكن عبادة تستحق الوصف، ولا مجالس علماء يليق بها ذلك. ويبقى الهدف الأسمى الذي سعى إليه هذا الرحالة من قيامه بهذه الرحلة وتدوين مشاهداته هو زيارة الأماكن المقدسة ووصفها. وقد كان العبدري بارعا في تفصيل وصف مكة والمدينة وما بهما من مزارات ومقدسات .

تعددت الأمكنة التي ذكرها العبدري في رحلته، وهي مجمل المعالم التي مر منها ذهابا وإيابا من المغرب إلى الجزيرة العربية، ولكن لم يصف إلا الأماكن التي ترتبط بهدفه من رحلته، فكل مكان ليست له قدسية معينة، وليس للعبادة وتحصيل العلم، فهو ليس موضوعا مفضلا عند العبدري .

ثالثاً : البنية المكانية لمكة و المدينة في الرحلة العبدرية:

شكلت مكة البؤرة الأساسية والمكان الهدف الذي تلتقي عنده كل الأحداث، ويسير السرد في اتجاهه، حتى إن كل الأمكنة التي قدمها العبدري في رحلته، إنما تقاس أهميتها بالنظر إلى أهمية مكة والمدينة الشريفتين وبُعد هذه الأمكنة أو قربها منهما .

خصص العبدري الحيز الأكبر من رحلته لوصف مكة والمدينة وبيان قدسيتهما وقدسية ما بهما من مزارات ومساجد ومواقع مختلفة. فقد تحدث عن مكة بطريقة مباشرة من الصفحة الخمسين بعد المئتين، إلى نحو الخمسين بعد

١- نفسه، ص: ١٠٤.

أربع مئة صفحة، وذلك فيما يتجاوز مائتي صفحة من مجموع صفحات الرحلة البالغة نحو خمس مئة، إذا استثنينا مقدمة المحقق والفهارس. ولعل هذا العدد من الصفحات التي تعلقت بطريقة مباشرة بمكة أو المدينة، يكاد يشكل نصف ما دونه العبدري خلال رحلته .

المكان في رحلة العبدري ليس مجرد مكان جغرافي للعبور أو الإقامة، وإنما هو مكان للعبادة، مكان مقدس تشكل زيارته أداءً لفريضة دينية، وإتيانا لسنة نبوية مؤكدة تتمثل في طلب العلم. وقد كان العبدري حريصا في كل رحلته على التقيد بتعاليم الدين الإسلامي عند أداء فريضة الحج، حتى إنه خصص بعض فصول هذه الرحلة للحديث عن هذه الشعائر، فقد خصص فصلا سماه: فصل فقهي مختصر في المناسك، تحدث فيه عن شروط الحج وأركانه وفضله. ولذلك لم يقف العبدري عند مكان مما قدمه إلا كان مكانا للعبادة او لتحصيل العلم .

البنية المكانية لمكة في رحلة العبدري :

خصص العبدري فصلا لمكة عنونه ب "ذكر مكة"[١]. إلا أنه كان قد بدأ الحديث عن هذا البلد وهو يقترب منه، فكان يصنف هذه الأمكنة بحسب قربها وقدسيتها في علاقتها بمكة، فقد ذكر في باب عنونه ب "مساجد عائشة" جاء فيه:

"وعلى مقربة من مكة بنحو أربعة أميال ثلاثة مساجد مصطفة على الطريق، بينها مسافة قليلة، وموضعها التنغيم، وهو أدنى الحل إلى الحرام ومنه يعتمر أهل مكة. وكانت عائشة رضي الله عنها اعتمرت من هنالك حين بعثها

١- رحلة العبدري، ص : ٣٥٨ .

رسول الله ﷺ مع أخيها عبد الرحمان من مكة في حجة الوداع، فبنيت تلك المساجد هنالك، وعرفت بمساجد عائشة وموضع إحرامها"[1].

ومن خلال هذا النص يبدو لنا واضحا أن كل مكونات البنية السردية بهذه الرحلة تدور في فلك المكان الذي تنتظم فيه الأحداث وتلتقي فيه الشخصيات، فهو المتحكم في استدعاء كل هذه المكونات، إذ في مكان محدد، مثل ذكر مساجد عائشة، تلتقي أحداث كثيرة وقعت في أزمنة مختلفة، وتلتقي شخصيات تنتمي إلى حقب تاريخية كثيرة، وما يجمع بين هذه وتلك إنما هو المكان، وهو بحسب طبيعة هذه الرحلة والهدف منها، وبحسب خصوصيات صاحبها، مكان مقدس يزوره الرحالة لأداء فريضة. ولن ننتظر إلا أنه سيتحدث عنه بشوق وشغف كبيرين يبينان مكانة مكة في قلوب الحجاج المغاربة، منذ ذلك الوقت، بل وعلى مر الأزمان إلى الآن .

غادر العبدري المغرب نحو مكة، وكانت كل الأمكنة التي عبرها في طريقه مجرد أمكنة عبور، كان يصفها ويقف عندها، ويسترجع بعض ما يرتبط بها من أحداث وشخصيات، إلا أنه كلما اقترب من مكة إلا وبدأ في استحضارها، فهي حاضرة في كل الأمكنة، وهذه خاصية من خصائص رحلات الحج التي تشكل زيارة مكة هدفها الأساس والباعث على القيام بها .

ما إن أطل العبدري على مكة من بعيد حتى خصص لذلك فصلا عنونه ب "ذكر مكةّ" وهو أغنى الفصول كلها، وأكثرها تعظيما لمكة، وفيه يبدو أن الرحالة قد بلغ مراده من الرحلة، وهو بلوغ مكة. يقول في ذلك :

"ثم نزل الركب بالمحصب يوم الاثنين سابع ذي الحجة، وبات به ليلة ثم رحل من الغد، وهو يوم التروية إلى منى، وفي يوم التروية دخلتُ إلى البلد

١- رحلة العبدري ، ص : ٣٥٣.

الأمين، مقر المجد العظيم، والشرف المكين، فخر بقاع الأرض كلها على مر السنين، فأقسم بالله أعظم يمين، قسما لا يكذب ولا يمين، ما حرم سكناه إلا ذو حظ غبين [وأنشد قصيدة في مدح مكة من اثني عشر بيتا، قبل أن يواصل].

يا له مشهدا شهد له التنزيل بالتفضيل، وسما عن أن يقرن بعديل أو مثيل، ما كاده أحد إلا رجع وشبا حده فليل، ولا مل إليه بظلم إلا والآفات عليه تميل..."[١].

عبر العبدري بكل صراحة عن تعلقه بهذا البلد الشريف، وأتى على كل أوصاف المجد والمدح، وهو لم يبلغ المكان الشريف بعد، يتمنى ألا يغادره، ويتمنى العودة إليه مجددا، ويعبر عن عجزه عن وصف عظمة هذا المكان الشريف إذ يقول :

"ما عسى أن يمدح السالف والخالف؟ ما عسى ان يُنقص من البحر الغارف؟ بان العجز سواء أقصر أم أطيل. ليت شعري هل أعود إليه ثانية؟ ليت شعري هل تُفَكُّ هذه النفس العانية؟ ليت شعري متى ترفَضُّ هذه الفانية؟ فتصبح الآمال بمكة دانية"[٢].

أ- وصف مكة :

يعترف العبدري قبل أن يبدأ في وصف مكة بصعوبة ذلك لعظمة المكان، ولما يلزم ذلك من إقامة طويلة بهذا البلد، وقد نجد ذات هذا العالم المتشبع بتعاليم الدين الإسلامي الحنيف، حاضرة بكل هذا الورع، يقول في بداية وصفه لمكة :

١- رحلة العبدري، ص: ٣٥٨-٣٥٩.

٢- رحلة العبدري ، ص: ٣٦٠.

"وها أنا أصف على قدر الإمكان، فأقول والله المستعان: إن مكة – شرفها الله – من عظيم آيات الله في الأرض الدالة على عظيم قدرته، فإنها بلد يسبي عقول الخلق، ويستولي على قلوبهم ويتملك رقها من غير سبب ظاهر، فالنفوس إليه نزاعة من كل أرض، ولا يدخله أحد إلا أخذ بمجامع قلبه مع عدم الدواعي إلى ذلك، ولا يفارقه إلا وله إليه حنين، ولو أقام به على الضنك سنين، لا يمل سكناه، ولا تضيق النفس بلزوم مغناه"[1].

إن الوصف الذي قدمه العبدري في النص الذي قدمناه تعبير عن حالة نفسية حيال مكة وليس وصفا بمعنى الكلمة. وحينما يصدر ذلك عن رحالة مثل العبدري، كان قد ألزم نفسه بالموضوعية، فإننا نفهم بعضا من خصائص الرحلة الحجية التي تشكل مكة والمدينة هدفها ومنتهاها، وهي رحلات تعبدية أكثر منها رحلات استكشافية. إن جانب العبادة المتمثل في إقامة مناسك الحج يظل حاضرا في كل رحلة حجية .

يعود العبدري إلى المنهج الذي انطلق منه، وهو أن يقدم مشاهداته كما رآها، فيتعجب مما تملكه عند وصف مكة وهي أرض جدبة بواد غير ذي زرع كما جاء في الآية الكريمة قبل أن يعود إلى التعبير عن مشاعره الجياشة وارتباطه بهذا المكان المقدس .

ب–حدود مكة :

من الفصول التي يخصصها العبدري للحديث عن مكة فصل عنونه ب "حدود مكة"، وهو فصل عاد فيه الرحالة ليصف لنا هذا المكان في علاقته بكل ما يحيط به من أمكنة أخرى، فعاد ليقدم لنا وصفا موضوعيا يقوم على التصوير

١– نفسه، ص: ٣٦٢.

الدقيق، مستعينا بحواسه وحدسه، ومستحضرا بعض المعطيات العلمية التي ذكرها غيره من الرحالة والعلماء. يقول عن حدود مكة :

"وهي – شرفها الله – بلدة كبيرة متصلة البنيان في بطن واد بين جبال محيطة بها، لا يراها القاصد إليها حتى يشرف عليها. والجبال المحيطة بها ليست شامخة، وبنيانها آخذ في الاستطالة مع الوادي، ولا سور لها، إلا أنها حيزت من أعلى الوادي وأسفله بحائطين من صخور لا ملاط لها.."[١].

يستحضر العبدري ذكر بعض هذه الحدود، أو الأمكنة المتصلة بمكة، بالحديث النبوي الشريف، وبالشعر العربي، يقول عند حديثه عن جبل الخندمة بمكة: "وبها الخندمة، وهي جبل مذكور في الحديث، وفي الشعر المشهور للهارب يوم الفتح قال :

إنك لو شهدت الخندمة

إذ فر صفوان، وفر عكرمة

ويستمر على ذلك في وصف هذه الأماكن وصفا تمتزج فيه ذات الرحالة بخصوصيات المكان المقدس. وقد كان العبدري قد صرح عند حديثه عن منهجه في كتابة هذه الرحلة بأنه سوف ينقل لنا الوقائع دون تقبيح أو محاباة كما ذكرنا. إن الإيمان القوي لهذا الرحالة والفقيه العالم بتعاليم الدين الإسلامي، والمتشبع بروحه، لا يرى حقيقة أخرى غير وجوب زيارة هذه الأمكنة المقدسة. فهو يؤدي فريضته ليس فقط بحجه خلال هذه الرحلة، وإنما بتدوينه لمشاعره ووصفه لعظمة اللحظة وقدسية المكان .

١- رحلة العبدري ، ص: ٣٦٤ .

ج- مساجد مكة :

إن أهم ما يميز رحلات الحج هو انتقاؤها للأماكن التي تصفها، وبما هي رحلات تعبدية، فإنها تولي كل عنايتها لأماكن العبادة، ومنها المساجد، فلا تجد رحلة حجية إلا وأفردت فصولا لمساجد مكة والمدينة على وجه الخصوص، ومن أهم هذه المساجد المسجد الحرام الذي يقول في وصفه العبدري :

"وأما المسجد الحرام – زاده الله تشريفا – فهو وسط البلد، كبير متسع يكون طوله «أزيد من أربع مائة ذراع» كما ذكر الأزرقي[١] – رحمه الله – وهو قريب من التربيع، يخيل للناظر أنه مربع، مفروش برمل أبيض جميل المنظر جدا، محكم العمل، عجيب الصنعة، كثير الإشراف، مرتفع الحيطان نحو عشرين ذراعا.."[٢].

خصص العبدري فصولا للحديث عن المساجد لوصف ما بداخلها او لتقريب وصفها من القارئ، وهكذا نجده يخصص فصلا لذكر الكعبة الشريفة في وسط المسجد .

جاء ترتيب العبدري للفصول التي خصصها لمكة المكرمة ترتيبا عجيبا لا يعلم سره إلا هو، فهو ينطلق من وصف المسجد الحرام، ويعرج على زمزم، ثم يعود لتخصيص فصل للحديث عن بعض التفاصيل التي تخص المسجد الحرام أو غيره من المساجد كوقوفه عند وصف الكعبة، ويعود للحديث، في فصل آخر، للحديث عن أسماء مكة، ثم يعود مجددا ليتحدث عن بناء الكعبة .

إن السر الوحيد الذي يمكن أن نفسر به هذا الترتيب هو أن العبدري سلك مسلكين في هذا الترتيب :

١- هو صاحب كتاب: أخبار مكة، وذكر هذه المعلومة في الصفحة ٨٢ من الجزء الثاني كما أورد ذلك المحقق.

٢- رحلة العبدري، ص : ٣٦٧ .

الأول: هو أنه كان يدون مشاهداته في الوقت الذي يقوم بزيارة هذه الأماكن، فلم يسعفه ذلك في تبني ترتيب منطقي مبني على طبيعة هذه الأمكنة .

الثاني: وهو أنه كان لا يكتفي بذكر ما شاهده، ولكنه كان يعود، كغيره من الرحالة، إلى الاستعانة بكتب التاريخ والبلدان لتقديم معطيات إضافية تخص بعض هذه الأمكنة كما فعل في ذكره للكعبة الشريفة والمسجد الحرام .

توقف العبدري فيما خصصه لذكر مكة عند أماكن كثيرة، نذكر منها: زمزم، المزدلفة، عرفة، حدود الحرم. ولعل ما يجمع بين كل هذه الأمكنة هو قدسيتها وارتباطها ببعض أركان الحج. ولا غرابة في ذلك، فقد خصص العبدري فصلا، تخلل ذكره لهذه الأماكن المقدسة خصصه للحديث عن أركان الحج وفضله .

البنية المكانية للمدينة المنورة في رحلة العبدري :

لم يكن من الممكن للعبدري أن يتحدث عن مكة المكرمة دون الحديث عن المدينة المنورة، في رحلة من رحلات الحج كرحلته هذه . وقد استهل حديثه عن المدينة بتخصيص فصل لذلك سماه " ذكر المدينة ".

استهل العبدري حديثه عن المدينة بالثناء عليها وتمجيدها، كما فعل في وصفه لمكة، يقول في ذلك :

"وفي ضحى يوم الاثنين الثامن والعشرين من ذي الحجة، وصلنا إلى معهد الفضائل المشهورة، ومعقد ألوية الدين المشورة، ومحتد المآثر المذكورة المأثورة، مجمع محاسن الدارين، منبع مفاخر العصرين، ومطلع سعادة الثقلين. روضة أزهار الأنام، ومشرق أنوار بدر التمام، وحمى كرم ما حام حوله حام، ولا سامَ بصفقته سام..."[١].

١- رحلة العبدري، ص: ٤١٩ .

وقد توسل العبدري، في تمجيده للمدينة، كما فعل عند ذكره لمكة، بالشعر لبيان عظمة المكان وجلاله، وليعبر عما يختلج في نفسه من مشاعر الحب لهذه الأمكنة الشريفة .

وهكذا ينتقل، إلى وصف المدينة، ولكنه لم يخصص لذلك فصلا خاصا كما فعل مع مكة، ويعود ذلك إلى قصر مدة إقامته بها. وقد حدد موقعها، وأهم ما بها من أمكنة مقدسة، نذكر منها : البقيع، جبل أحد، قباء وغيرها. إلا أن أهم ما استوقفه من أمكنة المدينة مسجد النبي الكريم والذي خصص له عنواناً باسمه "مسجد النبي" .

إن أهم مسجد توقف عنده العبدري بالمدينة هو مسجد النبي ﷺ، وهو يشبهه بالمسجد الحرام بمكة، ولكنه دونه في المساحة، يقول فيه:

"وأما مسجد النبي ﷺ فعلى صورة المسجد الحرام، إلا أنه في المساحة دونه بكثير، وعرضه على النصف من طوله، وطوله من الجنوب إلى الشمال، وعرضه من الشرق إلى الغرب. وهو عالي السمك، مبيض، ودور بالسقائف، عجيب المنظر، ووسطُه مفروش برمل أحمر، وأساطينه مبيضة بالفضة، عالية، متسع ما بينها..."[1].

ينتقل العبدري من المشاهدة إلى ذكر بعض الوقائع التاريخية المتعلقة بهذا المسجد، فيذكر أنه قد وُسِّع بعد الرسول ﷺ عدة مرات .

خصص العبدري فصولا للحديث عن فضاءات هذا المسجد، ومنها الروضة الشريفة، وقد أورد في هذا المضمار قصيدة طويلة بعنوان: القصيدة النبوية، وهي من مائة واثنين وأربعين (١٤٢) بيتا شعريا، نظمها العبدري في مدح الرسول ﷺ .

١- نفسه، ص: ٤٢٣ .

عاد العبدري، في وصفه للمدينة المنورة ولأمكنتها المقدسة ليخصص فصلا فيما يشبه التاريخ للحديث عن تاريخ بناء مسجد رسول الله وقبته، وضمنه مجموعة من الفصول الفرعية تتحدث عن بعض مراحل بناء هذا المسجد الكريم، بدءاً من بناء الرسول ﷺ له، إلى الزيادات التي قام بها الخلفاء الراشدون من بعده وغيرهم من الخلفاء .

وفي نهاية حديثه عن المدينة المنورة ومزاراتها خصص العبدري فصلا للحديث عن "الرحيل من المدينة" وكأنه ينذرنا بنهاية رحلته و زيارته لمكة والمدينة .

الخاتمة:

رحلة العبدري أو الرحلة المغربية كما يسميها البعض، نموذج يمثل الرحلات الحجازية، والمغربية منها على الخصوص، تشكل بنيتها المكانية عمود بنيتها السردية، وتشكل مكة والمدينة أساس هذه البنية المكانية. تلتقي هذه الرحلة مع غيرها من رحلات الحج في الباعث الأساسي والسبب الرئيس المتمثل في السعي إلى أداء فريضة الحج، وتشترك معها كذلك في أن الرحالة رجل دين وعلم واسع كغيره من الرحالة المغاربة الذين كتبوا رحلاتهم. الحجية. وهي رحلة تجيبنا عن الأسئلة التي انطلقنا منها في كتابة هذه المقالة، فهي رحلة حجية تمجد مكة والمدينة على الخصوص، وكل المزارات المقدسة بهما، وتحمل في طياتها علما واسعا، وتستزيد من شيوخ الحجاز الكرام. ونخلص، بعد دراستها، إلى تسجيل الخلاصات الموالية :

١- إن غنى البنية المكانية المتمثلة في رسم صورة متكاملة لمكة والمدينة، في رحلة العبدري، يجعل من هذه الرحلة مرجعا وافيا في تقديم معطيات جغرافية قيمة حول المقامين الشريفين، ويبين قيمتهما الروحية التي لا ينافسهما فيها أي مكان آخر في العالم. وقد جال بنا في تاريخ مكة وكل ما يرتبط بها من مقدسات، مقدما تفاصيل وجزئيات بعين العالم والمتدين الورع الظامئ إلى الارتواء من معين الدين الإسلامي الحنيف، فقدم تاريخا مبنيا على ثلاث دعامات هي: المشاهدة والنصوص الدينية والنصوص التاريخية في نقل بعض الوقائع وإثباتها فيما له علاقة بمكة والمدينة .

٢- تكمن أهمية هذه الرحلات الأدبية والعلمية في إغنائها للخزانة العربية، واحتوائها على مختلف الفنون السائرة في زمن كل رحلة من هذه الرحلات. وقد كانت رحلة العبدري نموذجا راقيا زاخرا بمختلف الفنون والعلوم، من شعر وفقه وغيرهما. وتمثل هذه الرحلات بالنسبة للحجاز مصدرا تاريخيا مهما، ومنبع فخر واعتزاز لأنها صورت الحياة الدينية والعلمية في بلاد

الحجاز عموما، وفي مكة والمدينة خصوصا، تصويرا خلابا، كما يؤكد ذلك الكثير من الدارسين، فقد "بقيت الرحلة مصدرا لتاريخ الحركة العلمية في الحجاز، إذ أبرز الرحالون الأثر العلمي الكبير للمسجدين المكي والمدني"(١).

٣- تمثل رحلة العبدري نموذجا للرحلات الحجازية الحافلة بكل مقومات السرد، ويمكن اعتبارها من أغنى الرحلات الحجازية عموما، والحجية خصوا، والتي احتفلت بالمكان احتفالا كبيرا، فقد قدمت لنا صورة مشرقة، كلها تمجيد وانبهار بكل من مكة المكرمة والمدينة المنورة، وما بهما من أماكن مقدسة. وقد شكلت الجزيرة العربية، إضافة إلى ذلك، مصدرا مهما من مصادر الإشعاع العلمي الذي حمله هؤلاء الرحالة إلى بلدانهم، فقد "كان لمنطقة الحجاز ولعلمائها وفقهائها الفضل الكبير على النهضة العلمية في كثير من البلاد الإسلامية، إذ فتحت أبوابها لأبناء المسلمين عامة، والمغاربة خاصة، واستقبلتهم ساحاتها العلمية، وتهيأ لهم طلب العلم في رحاب الحرمين الشريفين ولقاء العلماء الأجلاء، فانتشرت العلوم إلى البلاد الإسلامية الأخرى بفضل علماء الحجاز الذين كانوا صلة الوصل ونقطة الالتقاء بين العلماء المسلمين وأبناء الأمة الإسلامية على اختلاف بلادهم" .

قدمنا في هذه الدراسة المختصرة إضاءة عن الرحلات الحجازية، ومثلنا لها برحلة العبدري التي، وإن كانت من أهم هذه الرحلات الحجازية، قد أهملها الدارسون لفترة طويلة، رغم أنها مصدر من مصادر الأدب العربي الخالص بما زخرت به من شعر ووصف لمكة والمدينة بالدرجة الأولى، ولغيرهما من الأماكن كذلك .

١- الحسن الغشتول، ص : ٢٨.

المصادر :

- العبدري أبو عبد الله، رحلة العبدري، تحقيق علي إبراهيم كردي، تقديم شاكر الفحام، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط.٢، ٢٠٠٥م.

المراجع :

- جميلة روباش، أدب الرحلة في المغرب العربي: رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، ٢٠١٥م.
- الحسن الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، منشورات عكاظ،١٩٩٠.
- الحسن الغشتول، خطاب الرحلة المغربية إلى الحجاز: كتاب المجلة العربية عدد: ٢٥٥. ١٤٣٩هـ.
- حسين محمد فهيم، "أدب الرحلات." سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٣٨، يونيو ١٩٨٩,.
- حميد لحمداني. بنية النص السردي: من منظور النقد الأدبي. المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر والتوزيع.
- سعيدة حمداوي. "تجليات السرد في أدب الرحلة قراءة في كتاب الرحلات الحجازية في الأدب الجزائري لسميرة أنساعد،
- الشامي صلاح الدين، الرحلة عين الجغرافيا المبصرة، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط. ٢، ١٩٩٩.
- شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، منشورات رواية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٦.
- شوقي ضيف، الرحلات، دار المعارف، ط. ٤، ١٩٨٧.
- عبد الرحيم الكردي، البنية السردية للقصة القصيرة، مكتبة الآداب، القاهرة، ط.٣، ٢٠٠٥، ص. ١٤.
- عبد العليم محمد إسماعيل، تقنيات السرد أساس أدبية الرحلة، جائزة الطيب صالح العالمية للإبداع الكتابي، الدورة الثامنة، عالم خضرة، ١٤٣٩ / هـ ٢٠١٨.

- عبد الهادي بوطالب، رحلة الرحلات: مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، منشورات مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، سنة ٢٠٠٥.
- علي ابراهيم كردي، أدب الرِّحل في المغرب والأندلس، مطابع الهيئة السورية العامة للكتاب، ٢٠١٣م.
- ميساء سليمان الإبراهيم، البنية السردية في كتاب الإمتاع والمؤانسة، سلسلة دراسات في الأدب العربي، العدد: ١٦، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١١.
- ناصر الموافي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، مكتبة الوفاء، القاهرة، ط. ١، ١٩٩٥.

المجلات:

- مجلة البدر، المجلد ١٠، العدد ٢٠١٨،٠١م.
- مجلة المجلة العربية للعلوم ونشر الأبحاث، المجلد الخامس، العدد الأول، مارس ٢٠١٩م.
- مجلة المدونة، العدد الرابع، سبتمبر ٢٠١٥م.
- مجلة تاريخ المغرب العربي، العدد التاسع، ٢٠١٨م.
- مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد ٤٠ن العدد ٢، ٢٠١٨.
- مجلة لونارد، عن مؤسسة لونارد للفن والعمارة والتراث، لندن، العدد: ٧، السنة: ٢، يناير ٢٠١٢.

المراجع الإلكترونية :

- www.aljabriabed.net/n87_05hatimi.htm

الرسائل الجامعية:

- نورة بنت محمد بن ناصر المري، البنية السردية في الرواية السعودية، رسالة علمية للحصول على درجة الدكتوراه، إشراف الدكتور محمد صالح بن جمال بدوي، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، ١٤٢٩ / ٢٠٠٨.